

المفاهيم النقدية في كتابات ميخائيل باختين

Critical concepts in the writings of Mikhail Bakhtin

د، أوريدة عبود *

جامعة مولود معمري/تيزي وزو/الجزائر

abboudourida@yahoo.fr

ملخص:	معلومات المقال
يروم هذا البحث إبراز أهمية نظرية ميخائيل باختين و مفاهيمه النقدية في مسار النظرية الأدبية الحديثة في القرن العشرين، لاعتبارات عديدة في مقدمتها الدور الريادي الذي اضطلع به باختين في الكشف عن خصوصية فن الرواية ، خاصة أن مفاهيم باختين النقدية قد تجاوزت المفهوم والمصطلح لتؤسس نظرية لها خلفيتها الفكرية الفلسفية ، فهي ذات نظرة شمولية تمس جميع العلوم الإنسانية ، وتمتد الناقد الروائي بالأدوات الإجرائية كما تمده بالمشورات النظرية التي يتكئ عليها حين مقارنته للنصوص. وقد توصلت دراستنا إلى النتائج الآتية: - أثبتت مفاهيم باختين صلاحيتها في عملية تحليل الخطابات والنصوص المتنوعة ، ورغم كثرة المناقشات التي خاضها النقاد حول قيمة هذه المفاهيم ، فإن أفكاره انتشرت وتجاوزت الحدود المحلية مؤسّسةً للنظرية النقدية. - استندت مفاهيم باختين إلى مرجعية متعدّدة بين ابستمولوجية وفلسفية وإيديولوجية	تاريخ الارسال: 2025 /03 /18 تاريخ القبول: 2025/ 05 /30
	الكلمات المفتاحية: ✓ الرواية ✓ التعدد اللغوي ✓ المجتمع

Abstract :	Article info
<i>This research aims to highlight the importance of Mikhail Bakhtin's theory and critical concepts in the path of modern literary theory in the twentieth century, for many considerations, most notably the pioneering role played by Bakhtin in revealing the specificity of the art of the novel, especially since Bakhtin's critical concepts have transcended the concept and term to establish a theory with its intellectual and philosophical background. It has a comprehensive view that touches all human sciences, and provides the novel critic with procedural tools as well as theoretical indicators that he relies on when approaching texts. Our study has reached the following results:</i> - <i>Bakhtin's concepts have proven their relevance and validity in the process of analyzing various discourses and texts, and despite the many discussions that critics have had about the value of these concepts, his ideas have spread and transcended local borders, establishing critical theory.</i> - <i>Bakhtin's concepts were based on multiple references between epistemological, philosophical and ideological</i>	Received 18/03/2025 Accepted 30/05/2025
	Keywords: ✓ The Novel- ✓ Linguistic Diversity- ✓ Society

مقدمة:

تبوأ ميخائيل "Bakhtine Mikhail" مكانةً فريدةً في الفكر الإنساني، نظراً لإشكاليّة مفاهيمه ونصوصه، ولتنوّع مادته الفكرية وتعدّد حقول البحث لديه، فقد مارست كتابات "باختين" سلطتها على النظرية الأدبية والثقافية" لأكثر من ربع قرن، ذلك أن أطروحاته استفادت من منظور فلسفة اللغة وعلاقتها بالفكر فرفضت كثيراً من التصوّرات البنائية الشكلية القائمة على الألسنية، ومن هنا كان للنقد الروائي عند "باختين" وظيفة مزدوجة: إنتاج معرفة داعمة لأطروحاته النقدية، ثمّ توضيح موقفه من المسألة المعرفية ذات الأبعاد الاستمولوجية المؤثثة في الحقول الفلسفية واللسانية. بناءً على ذلك يطرح بحثنا مجموعة من الأسئلة مفادها:

- ماهي التصورات النظرية والمقولات الأساسية التي بلورها باختين في مجال تاريخ الرواية؟
 - هل العلاقة بين الخطاب الروائي وثقافة المجتمع تتعدى فعلاً الأطروحات الإيديولوجية في ثقافتنا المعاصرة؟
 - كيف يستغل الناقد بنية اللغة الروائية بوعي وانتظام؟
- هذه هي التساؤلات التي نروم الإجابة عنها بما يلقي المزيد من الضوء على أطروحات باختين و سنحاول الإجابة عنها في إطار سوسولوجيا النص على المستوى النظري، التي، تسعى إلى تمثيل مختلف البنيات النصية كبنيات لسانية واجتماعية في آن، ما دام الأمر يتعلق بمستويات دلالية وتركيبية سردية ذات علاقات جدلية، ومن خلال هذه العلاقات يمكن النظر إلى العالم الاجتماعي كمجموع لغات اجتماعية مستوعبة ومحولة بواسطة النص الأدب.
- 2 الكلمة ظاهرة إيديولوجية بامتياز :

تنطوي أعمال باختين على منهج نقدي يتكئ على نظرية الكلمة التي، تفصل بين الكلمة القاموسية ويحتفي بها المنظور الفكري التقليدي، والكلمة الحية التي هي مرجع النظرية التي يعالجها، فهو يرفض التصور التقليدي للكلمة التي لا

تعرف إلا ذاتها وموضوعها وتعبيريتها المباشرة ولغتها الواحدة والوحيدة، ويذهب إلى الكلمة المشخصة التي يرتبط وجودها بوجود كلمات الآخرين فيها قبولاً أو رفضاً أو تقاطعاً. فالكلمات الفردية (المحايدة) غير موجودة إنما وجودها هو تأثرها بكلمات أخرى، ويعطي للكلمة كيانه حياً يتولد في علاقات التأثير والتأثير. وفي علاقاتها بالكلمات الاجتماعية الأخرى. فالكلمة: "حلبة مصغرة، تتقاطع فيها وتتصارع لهجات اجتماعية ذات توجه متناقض تستبين الكلمة، في فم الفرد، نتاجاً للتفاعل الحي للقوى الاجتماعية."()

تعيش الكلمة خارج ذاتها في حياة يومية، تؤكد لها مادة فاعلة متميزة تؤمن تعارف البشر وحواراتهم، وتعكس تصورهم للعالم، وعلى هذا فهي تحيل على المجتمع والتاريخ وتحولاتها ككلمة، هي تحولات في المجتمع والتاريخ، لأنها: ظاهرة اجتماعية في كل مجالات حياتها، وفي كل الحالات التي توجد فيها بدءاً من الصورة الصوتية وانتهاء بطبقات الصوت ذات المعنى الخاص.()

تنقل الكلمة كل العلاقات والأفكار والجدال القائم بين أفراد المجتمع وكل انحراف في الوعي والوجود لا يتحقق إلا داخل الكلمة. فهي ظاهرة إيديولوجية بامتياز، تتطور باستمرار وتعكس بأمانة كل التغيرات والتقلبات الاجتماعية... وهكذا فأية دراسة تخص تاريخ اللغة، لا يمكن أن تتم بمعزل عن الكيان الاجتماعي الذي ينحرف فيها، وعن الشروط الاجتماعية والاقتصادية العاكسة.

فالكلمة حاملة دائماً لمضامين إيديولوجية، ولا يتحقق استعمالها إلا بفضل الإيديولوجيا التي تلازمها لأن الكلمة المكتفية بذاتها لا وجود لها، وإذا فصلنا بين الكلمة وحمولتها الإيديولوجية سنلغي دلالتها وتعدو إشارة مجردة بعدما كانت إشارة لغوية. فآدم وحده الذي بإمكانه فعلاً تفادي هذا التوجه المتبادل مع كلمة الآخر في الموضوع الواحد.()

إن الكلمة هي علاقة اجتماعية، لها مآل العلاقات الاجتماعية، لا تتوقف عن التبدل والتغير، ويرى باختين أن تحولات الكلمة مقدمة لتحولات اجتماعية: "فالكلمة قادرة على تسجيل المراحل الانتقالية الأكثر صغراً، الأكثر عرضية في التغيرات الاجتماعية"() ذلك أن: "الكلمة أيضاً تصحب كل فعل إيديولوجي وتعلق عليه."()

انطلق باختين إذن من الكلمة ليحلل المستوى الإيديولوجي: "إذ تعتبر كمؤشر حساس وفعال لكل التحولات الاجتماعية وذلك بفضل وجودها الاجتماعي الدائم"(). إنها جزء من كل ملفوظ ناتج عن ملفوظية واقعية، ضمن التفاعل المتناقض للخطابات في إطار مجتمع معين. وكل تعبير ملموس للكلمة هو عمل اجتماعي، لذلك على الكاتب أن يتموضع في نظام لغوي قائم على تناقضات وتقديرات اجتماعية. إنه وفق نظرية باختين عندما نفهم عبارة معينة، علينا أن نوجه إليها كلاماً ضديداً وأن نقيم معها حواراً ضمناً

2 - اللغة والتعدد اللغوي مؤشرات لمنظورات اجتماعية:

تتقاسم الكلمة واللغة صور التغير والتبدل والوجود الحي متعدد الدلالات، هذا يعني أن صورة الكلمة ما هي إلا صورة اللغة، فاللغة: "تعيش وتتطور تاريخياً داخل التواصل الكلامي المشخص"(). وهي تحضر مع الأفراد المتحاورين بلغة حية موحدة، أو تحضر في وظيفتها الاجتماعية المتميزة بالتنوع والاختلاف. فتظل ممارسة اللغة شرطاً لوجودها ولا تتعين إلا في أشكال تبادلها الاجتماعية، لأن الفرد لا يتكلم إلا من خلال كلام الآخر، والآخر لا يرسل الكلام إلا بسبب كلام وقع عليه، لتأخذ اللغة حينئذ في حقل التبادل الكلامي الملزم لها سيرورة مفتوحة، أساسها التنوع الكلامي الصادر عن أناس لهم حياتهم وشروطهم الاجتماعية المتنوعة، لأن: "سيرورة الكلام بمعناها الواسع كسيرورة نشاط لغوي على المستوى الداخلي والخارجي، هي سيرورة مستمرة لا بداية لها ولا نهاية."()

إنّ الذي يعبر عن مدى ارتقاء اللّغة هو الأشكال الاجتماعية لممارستها، أي مرآة للنشاط العقلي الذي يلزمها. فممارسة اللّغة بمثابة وجه آخر للفكر وتعبير مشخص عن وجودها الفعلي والحركي.

تحيلنا هذه الفكرة على مبدأ التنوع الكلامي، الذي يقول به باختين (هذا التنوع الذي يفصح عن مدى الارتقاء الاجتماعي)، فقد يحضر كلام المهن المختلفة وكلام الحرف المتنوعة في الحقل الاجتماعي، ويحضر حتى كلام الريف والمدينة وما بينهما، ويحضر في الحقل المعرفي كل ما يشمل الطب والفيزياء والرسم والقانون، الأمر الذي يفتح للغة أفقا ويحقق لها ارتقاء، على أساس أن التنوع ارتقاء وأن الأحادية تخلف وفقر. والتنوع الكلامي دليل على حياة اللّغة، فكلمة اللّغة : "نصف غريبة، إنها لا تصبح كلمة المتكلم إلّا حين يملؤها ويزجها في اندفاعاته المعنوية والتعبيرية، (فالمتكلم لا يأخذ الكلمة من القاموس) بل من شفاه الآخرين، في سياقات الآخرين، في خدمة مقاصد الآخرين، من هنا يترتب على المرء أن يأخذ الكلمة ويجعلها كلمته.()"

هذه الملاحظة تضيء لنا المبدأ الحواري عند باختين الذي يبدأ علاقة لغوية، لتمتد وتشمل أساس الإبداع لأن اللّغة الأدبية: "كالوعي اللغوي للمثقف ثقافة أدبية ملازمة لها ظاهرة عميقة الخصوصية والأصالة إذ أن التضارب القصدي فيها يتحول إلى تنوع لغات إنه ليس لغة بل حوار لغات.()"

وبكون اللغة مؤشرا ملموسا ودالا على التحولات الاجتماعية، يرى باختين ضرورة استبعاد الدراسة الخارجية عن النص الإبداعي الروائي، والاكتفاء بالتركيز على دراسة السياقات اللغوية الاجتماعية، التي يقصد بها الخلفيات السوسيو تاريخية والطبقية للأفراد وليست الصيغ التركيبية والمعجمية المتعددة، لأن التمايز الاجتماعي يجعل الاهتمامات والانشغالات والتصورات والرؤى والأهداف المتباينة والمختلفة، تترأى وراء جميع اللغات الاجتماعية صور المتكلمين، ومن ثم تتحقق صورة المجتمع في النص الروائي عبر صور اللغة الممثلة للأفراد.

تشكل اللّغة عنصر التفاعل الأساس في نسيج العلاقات الاجتماعية والقيم الخلقية لهذا يرى باختين أن الوعي لا يتحقق إلّا إذا امتلأ بحمولة إيديولوجية، وما دامت اللّغة هي الوسيط الأكثر اتصالا بحركة الفكر فإنها تصبح دلائل مجتمعية مرسومة بخصائص الفئة أو العصر الذي تنقله، إذ إنّ "الكلمات منسوجة من خيوط إيديولوجية عديدة لا تحصى، إنّها لحمة العلاقات المجتمعية لجميع مجالاتها، ومن ثم فإنّ الكلمة ستكون المؤشر الأكثر ملموسة لكل التحولات الاجتماعية.()"

انطلاقا من ذلك فإن مقارنة النص الروائي لا ينبغي أن تتناول اللّغة الأدبية اعتمادا على اللساني الذي يقتصر على المستوى التركيبي، الذي يربط نتائجه بصيغ الكتابة عند كاتب ما لأنّ لغة الرواية: "متعددة بتعدد شخصياتها وإيديولوجياتها، فالرواية ليس فيها لغة واحدة، يمكن دراستها لسانيا بالشكل المبسط المعهود لأنّها وحدة متماسكة تشمل عددا من اللغات وعددا من الأصوات والأساليب.()"

تستعمل الرواية جميع اللّغات والصيغ والأجناس التعبيرية، والكاتب يوظف فكرة في تشخيص لغة الآخرين دون أن ينتهك إرادتها أو يشوه أصالتها الخاصة، فالرواية تشخص جميع الأصوات الاجتماعية، وجميع اللغات مهما تقل أهميتها في عصرها لتكون عالما صغيرا للتعدد اللغوي، فكل لغة لا تتكشف في أصالتها إلّا وهي متصلة بجميع اللغات الأخرى المدمجة داخل الوحدة المتناقضة للصيرورة الاجتماعية، ولكل لغة وجهة نظر ومنظور اجتماعي للفئات الاجتماعية القائمة، وإذا لم تفهم على أنّها منظور اجتماعي إيديولوجي فإنها لا تستطيع أن تفيد كمادة للتنسيق.

إن الرواية لا تشيّد على الاحتفالات الدلالية بكيفية مجردة، ولا على التصادمات الناتجة عن الموضوع فحسب، بل هي تقوم على تعدد لغوي ملموس، لذلك فإن وجهات النظر المجسدة التي تطمح إليها الرواية هي التمام تاريخي والملموس

لغات الاجتماعية الإيديولوجية من خلال خلفية حوارية للغات العصر الأخرى، وبتفاعل حوارى مباشر معها تأخذ كل لغة صدى مغايرا للصدى الذي كان سيكون لها.

ليست لغة الرواية لغة واحدة بل هي نسق أدبي من اللغات، التي لا تتواجد على المستوى نفسه، حتى خطاب الكاتب نفسه يظل نسقا أسلوبيا من اللغات. كتل هامة من هذا الخطاب، تؤسلب لغات الآخرين، وتتلأشى داخلها أحاديث الآخرين فتنتهي شكليا لأحاديث الكاتب. إن الرواية على نسق لتشخيصات اللغات، وتتمثل المهمة الحقيقية لتحليله أسلوبيا في أن نكشف داخل الرواية جميع اللغات المفيدة في توجيهها، وفهم درجة العدول القائمة بين كل واحدة من اللغات، وبين المستوى الدلالي، كما تتمثل مهمة التحليل الأسلوبي في التقاط العلائق الحوارية المتبادلة لتلك اللغات، وإذا كان هناك خطاب مباشر للكاتب فإنه على التحليل أن يكشف عن الخلفية الحوارية متعددة اللغات، والموجودة خارج العمل المحلل.

تقترن اللّغة عند باختين كما قلنا سابقا بالمجتمع ، فهي أداة التفاهم والتواصل والتفاعل بين أفرادها. واللّغة قول وحوار ولا يمكن الاعتماد على وجهها اللساني مجردا عندما نقدم على تحليلها أدبيا، وإتّما علينا أن ننظر إليها في إطار وظيفتها الحوارية التي تعبر عن الحياة الاجتماعية وتجسد التواصل الإنساني.

فاللّغة الروائية ومميزاتها الشكلية، ليست سوى رموز لمنظورات اجتماعية، في حين أن الخصائص اللسانية هي مؤشرات إضافية تسهم في توضيح الفروق اللغوية. فقد أعطى باختين طابعا اجتماعيا للغة باستعماله مصطلح اللغة الاجتماعية بدل المفهوم اللساني الصرفي الذي يقوم بتحديد اللهجات والأصوات، وبهذا وفق بين النص من حيث هو دلالة لغوية لسانية ، والنص كونه تعبيراً اجتماعياً إيديولوجياً.

بناء على ذلك يرى أنه ينبغي على اللغة المستخدمة في حوارات شخصيات الرواية أن تقوم بوظيفة إنشاء صورة اللغة، أما عن المستوى الموضوعاتي في النص الروائي، فعليه أن يكشف عن الخطابات الاجتماعية والإيديولوجية وتبيان الروابط القائمة فيما بينها، يقول باختين: "اللغة نظام مشبع إيديولوجيا وليست اللغة نظام مجموعات قواعد مجردة، وفي حالات كثيرة ننظر إليها كراي مشخص يساعد على فهم بعض المجالات الحياتية."()

عندما نحلل لغة الرواية ينبغي البحث في ذاتها، لا عن لغة الكاتب بشكل مطلق، لأنّ لغة الرواية تجسد أفعالا وتصورات وحوارات وأساليب الكون، لغات اجتماعية إيديولوجية تعكس شرائح اجتماعية، لها خصائص لسانية معينة تتفاوت من حيث الإيديولوجيا فهي: في كل لحظة من لحظات صيرورتها عرضة للتفكك، ليس فقط إلى لهجات ألسنية بالمعنى الدقيق للكلمة، بل إلى لغات اجتماعية إيديولوجية، لغات فئات اجتماعية ومهن وأجناس أدبية.

4- الرواية ممارسة لغوية و جنس أدبي في صيرورة:

إذا كان التحليل السوسيولوجي يرى الرواية ويدرسها في السياق التاريخي السوسيولوجي لإنتاجها، فإن التحليل اللغوي الدلالي يحاول دراسة مسار إنتاج الرواية ولحظات وضعه لها. تبدو الرواية كممارسة لغوية موجهة وذات دلالات، فهي ممارسة في الدال، أي اللّغة وإعادة صياغة خصوصية لها، يمكن أن تنجز وفق أنماط مختلفة من الكتابات، من كتابة واقعية إلى كتابة رومانسية وأخرى خيالية.

ظلت الرواية: "ردحا طويلا منصرفة عن الاهتمام باللّغة وجمالياتها وإمكانية استثمار قدراتها الخاصة، حيث تمّ التعامل مع الرواية، بوصفها رواية أحداث بالدرجة الأولى وتستمد قيمتها وأهميتها وجمالياتها بالتالي من نوعية الأحداث التي تعرضها. وبعد التنبه إلى اللّغة وأهميتها القصوى في المعمار الروائي، برزت اللّغة الشعرية، بمقاييسها المتطورة."()

خلال عملية التسريد الروائي التي يقوم بها الكاتب، ترتبط كيفية القول بمضمونه بالشكل ليس وعاء للمضمون، والمضمون ليس ما يملأ الشكل، إذن دياكتيك العملية كلها ناتج من أن وضعية الروائي في ممارسة الكتابة الروائية تقوم بمواجهة لنصوص الكتاب الآخرين، ثم ينطلق لإنتاج نصوصه. ففي ممارسته يجد نفسه أمام نصوص سواها المكتوبة في النوع الأدبي ذاته أو في الكتابات المتنوعة ومختلفة البناء والتشكيل.

إن طريقة تلقي الكاتب لهذه النصوص: "ونمط هضمه لها هي التي تحدد عملية بنائه وتشكيله لنصه وكتابة الروائي، فهو جهده في صياغة تعبير عن الواقع العميق وفي حقيقته العميقة، لأجل تحقيق مرئية مظاهره وتموجاته عبر وجوه حية محكمة ومنظمة" (). تستجيب الرواية: "لرغبة إستراتيجية في تكثيف العمل السياسي في الخطاب الأدبي المعاصر، وهي رغبة بالغة النبل والسمو إنسانيا وجماليا." ()

يؤسس باختين نظرية الرواية على نظرية اللغة الحوارية، التي يكون المبدأ الحواري قواما لها. فتطور الرواية يقوم أساسا: "على تعميق الحوارية وتوسيعها وإحكامها، وبذلك يتقلص عدد العناصر الحوارية المحايدة الصلبة التي لا تدرج في الحوار، فيتغلغل الحوار إلى أعماق الجزئيات وأخيرا إلى أعماق الذرات في الرواية." ()

على هذا الأساس فإن المبدأ الحواري يخترق علاقات الرواية بأكملها إذ هو قائم في الأسلوب والبناء وحتى في المؤلف، حاضر من خلال الشخصيات التي شكلها وأخرجها حيث أن الكتابة هي: "حوار مع الذات وتواصل مع نص آخر." () نظر باختين إلى الرواية كجنس في صيرورة، يسير في طبيعة التطور الأدبي لأنها مليئة بإمكانيات التطور والتحول وإمكانية التجدد الذاتي أو النقد الذاتي الذي تمارسه تتغذى بالتاريخ الكوني وتفتح الثقافات على بعضها واللغات على بعضها. تعطي الإنسان مراجع عديدة وتتعامل مع الحد الأعلى من الحاضر. وهي متوجهة إلى المستقبل، يتطابق في هذا التطور والتنوع مع الأنّي المفتوح، أو مع حاضر في صيرورة، على أن الحاضر لا يقبل الانغلاق، حاضر يعترف بالتنوع ويحتضن الأزمنة التي تتعامل معه فإن الرواية أثرت لتفاعل لغوي شديد على المستويين الداخلي والخارجي، تدرس على أساسها تاريخ التبادل اللغوي بينها.

ارتبطت جذور الرواية بالفلكلور، وهذا ما جعل باختين يكتشف جذور الرواية في الثقافات الشعبية القديمة وبخاصة عند الإغريق والرومان. وتتجلى هذه الثقافات الشعبية في الأصناف الأدبية كالحوارات السقراطية وأدب المآدب وأدب المذكرات، والشعر الرعوي والهجائية المنيبية وغيرها من الأصناف الهزلية، التي قامت على هامش الأصناف الجادة مثل الملحمة والمأساة والتاريخ.

ترتبط هذه الأصناف بالكرنفال، الذي ربطه باختين: "باحتراف قديم كانت تحتفل به طائفة الكاثوليك، الرومان في المسيحية قبل أن يبدأ الصوم الكبير لديهم. وخلال هذا الاحتفال كانت تنقلب المعايير السائدة وتختفي الفروق والتميزات وأشكال الاحترام الزائف والمجاملات الكاذبة وكل ما يميز بين الناس، ويسود معنى التحرر، والمرح، والضحك والمصارحة.

عاش إنسان العصور الوسطى، حسب باختين، حياتين: واحدة كانت مليئة بالرعب والخنوع والخشية... والأخرى كانت متصلة بالكرنفال، حرة غير مقيدة، حافلة بالضحك والمرح، وبالمجون والانحطاط واتسمت علاقات التواصل فيها بالألفة مع كل شخص وكل شيء. كلتا الحياتين كانت شرعية، إلا أنه تم الفصل بينهما بحدود دنيوية صارمة." ()

تطور الكرنفال حيث أصبح طقسا اجتماعيا، مثل بعد ذلك خطابا أدبيا مغايرا للخطاب المؤسسي. ويتميز بנקته الساخرة وبتعامله المعكوس مع كل القواعد التي وضعها المؤسسة الرسمية في مجال التعبير الأدبي. وقد لاحظ باختين وجود هذا العنصر الكرنفالي في بعض الأعمال الأدبية وتابع تطوره مركزا على أعمال الروائي دوستوفسكي.

يطرح باحثين الكرنفال على أنه: "طريقة حياة ونمط لغة، فهو بذلك تعبير عن الحرية العامة، وتعبير عن التحرر من المعايير السائدة ومن القيم الرسمية، بحيث تتوقف كل أشكال الرعب والهيبة والخنوع، وكل ما يرتبط بذلك من سلوكيات تنتج من التفاوت الاجتماعي أو عن أي تمايز بين الناس. وهكذا تتحول أنماط التراتب الاجتماعي ولا تغدو هناك أية حرية رسمية صارمة تفصل وتعزل وتباعد بين الناس، بل ضحك يوحد ويربط ويحرر كل الطاقات والأفكار. وفي هذا، ليس الكرنفال محض دعوة إلى حرية فردية، بل هو دعوة إلى أن يصبح كل فرد جزء من وحدة معقدة جماعية.()"

لما كانت الرواية جنسا أدبيا متميزا: "فإنّ ما يثير الاهتمام فيها هو انفتاحها وقدرتها على توظيف كل اللغات والنصوص، مما يحقق لها مقومات بلاغية نوعية تمكنها من التغلغل إلى أعماق الكاتب والتشخيص مشاعره وانفعالاته، وبلورة فضاء حوار يمثّل مواجهات الجماعة وتفاعلاتها عبر الأزمنة والأمكنة.

تحقق الرواية هذه اللغة المتعددة من خلال التجارب والمواقف والأسئلة التي تحاصر المبدع، فتكون بمثابة الرحم المولدة للكلمات الباحثة عبر التخيل والذاكرة وحضور الذات، عن مستقر مؤقت يفسق فيه لغته الأقرب إلى التعبير عن سديمه الداخلي. وعلى هذا الأساس تؤسس الرواية كلامها الخاص الذي يختلف عن سائر أنواع الكلام الأخرى، والذي يجعل منها شكلا من الممارسة التي يساهم بها الروائي في التفاعل العام.()

إنّ النص الروائي كما يراه باحثين موزع على نصوص عديدة ومتباينة، بذلك يتقصى أثاره في أزمنة بعيدة وفي نصوص أكثر بعدا. وهو في تصوره هذا يظل مؤكدا على مقولة الحوار. فمادام التفاعل اللفظي هو قوام الرواية، فإن أشكال التفاعل المختلفة والموزعة على أزمنة مختلفة، هي التي تؤسس قوام الكلمة الروائية.

تشكلت الكلمة في الرواية عبر حوار الثقافات وأعدت تشكيل ذاتها في حوار اللغات المتعددة مع اللغة الوحيدة. وشخصيتها لا تقوم في ذاتها بقدر ما تتوزع على شخصيات وتتمدد فيها شخصيات أخرى، وخطابها يستعير مواده من علم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس والأساطير وصولا إلى الفيزياء الحديثة، لهذا تكون الرواية الجنس الأدبي الأكثر شباها، وهي الجنس الوحيد الذي هو في صيرورة، وهي فريدة في تطورها بين أجناس أخرى تشكلت منذ زمن بعيد، وتظل تقاتل من أجل أن تكون متفوقة في الأدب، إضافة إلى ذلك فهي جنس في صيرورة مدهشة يسير في مقدمة الأدب كله عبر الأزمنة (لأنّها تأخذ كل ما هو جديد وتلتقط المبتدع الذي لم يتشكل وتنبئ بجديد لا يستطيع أي جنس أدبي غيره رؤيته، وتعلن أنها تخاطب المستقبل قبل أن تحاور الحاضر لذلك استحققت أن تكون: "النوع الوحيد الذي لا يزال في صيرورة.()"

يقيم باحثين تصورا نظريا لعلاقة الرواية بالإيديولوجيا، يختلف عن إنجازات النقد السوسيولوجي المعاصر له، الذي يجعل النص الأدبي انعكاسا آليا لبنى اجتماعية، يحمل بصورة نسبية موقف مبدعه، لهذا قسم الرواية إلى صنفين متقابلين، لكل منهما أسلوبيته الخاصة في التعامل مع الإيديولوجيا هما: الرواية المناجائية (المونولوجية) والرواية الديالوجية (الحوارية).

أ- الرواية المناجائية (المونولوجية):

يعمل هذا النمط من الإبداع السردي على إبراز فكرة واحدة وتأكيدا، ولا يفتح المجال أمام الأفكار المعارضة، إنّها روايات ذات صوت واحد، على الرغم من أنها تحوي على تصورات مختلفة يجسدها أبطال متعددون، إلا أنّ تصور الكاتب يقوم بتوجيهها والتحكم فيها والتغلب عليها في النهاية. إنّ العلاقة القائمة بين الكاتب وعالمه الروائي. تحكمها رؤية أحادية غرضها إقناع القارئ، وتسعى للإعلام بأهميتها وجدواها على حساب الأفكار الأخرى، التي تعرضها الرواية، ولا تمنح أفكار الآخر التعبير عن ذاتها بحرية كاملة لأنّ وجودها يسعى لتنمية فكرة الرواية أو بطل الرواية الذي يحمل أفكاره، فالعالم المونولوجي لا يعرف أفكار ورؤى الغير، بل كل ما هو إيديولوجي في هذا العالم ينقسم إلى فئتين: فئة من الأفكار تجسد وعي

المؤلف، يتم التعبير عنها وتأكيدا بوصفها أفكار صائبة وفئة من أفكار وأراء غير صائبة من وجهة نظر الكاتب يرفضها ويحاصر تأثيرها، يقدمها على أنها من متطلبات التشكيل الفني في الخطاب الروائي.)

لا تمثل الشخصيات في فضاء الرواية المونولوجية لغات اجتماعية مستقلة، إنما تمثل أدوات تخدم فكرة الكاتب وإيديولوجيته، لأن هدفه في هذا الصنف من الإبداع الروائي هو الحفاظ على الوحدة الدلالية لفكرته المطروحة في خضمها، لكونها رؤية صائبة مقنعة: "ويغدو العالم الروائي بناء على ذلك خاضعا لنبرة موحدة ومعبرا عن وجهة نظر وحيدة وواحدة" (،) في حين تتراجع أصوات الوعي الأخرى وتتفكك تحت ضغط التوجيه الأحادي لرؤية العالم، وتخضع للهيمنة الأيديولوجية للمؤلف.

ب- الرواية الديالوجية (الحوارية):

يذهب باختين إلى أن الأسلوب المناجاتي للكتابة الروائية لا يعكس اللغات الاجتماعية المتعددة الموجودة في الواقع، لذلك عارضه وطرح شكلا بديلا هو الرواية الحوارية متعددة الأصوات، الذي اشتقه من الكاتب الروسي دوستوفسكي، وعده بذلك مبدع الرواية متعددة الأصوات.

تحظى الرواية الحوارية بحضور الإيديولوجيات والشخصيات، ويحضى القارئ بالتعرف على إيجابياتها وسلبياتها، لكن الكاتب لا يتدخل في توجيهه بتحسين صورة شخصية معينة أو تشويهها، فمؤلف مثل هذه الرواية مطالب بالحياد المطلق وتعميق رؤيته لتقديم التصورات المتعددة بطريقة متكافئة تضمن له تعددية الرؤى والأصوات. يفسح المجال أمام مختلف الإيديولوجيات وأنماط الوعي أن تتصارع وتعبّر عن ذاتها ليجد القارئ نفسه حرا في الحكم عليه، وتكون الرواية حين ذاك على: "درجة عالية من الوعي الشمولي بالواقع، تحقق نوعا من ديمقراطية التعبير." (،)

تحقق الرواية الحوارية شمولية للوجود، وتنتج تصورات متعددة عن العالم والواقع وتكرسها، وبذلك يتخلى المؤلف عن التحدث نيابة عن أبطاله والتعليق على أفعالهم، تاركا مسافة بينه وبينهم، وهذا التنوع الفكري يسمح للقارئ أن يجد من يمثل ميولاته عبر الشخصيات الروائية، لأن حظوظ التعبير والإدلاء بالآراء لجميع أقطاب التواصل داخل النص وخارجها متساوية، يمثلها كل من الكاتب والراوي والشخصيات والقارئ.

إن ما يخلق حوارية الرواية عند باختين إضافة إلى تعدد الرؤى والأصوات هو تعدد الأساليب واللغات المتصلة بمختلف الهياكل المجتمعية، فكل شخصية في الرواية تعمل على الحفاظ على لغتها الاجتماعية وأسلوبها الخاص ونبرتها المميزة وتتكلم بصوتها الذي يشخص لغة اجتماعية ويحيل على فكرة معينة تتجسد عن طريق الحوار مع أشكال الوعي الأخرى، لذلك تظل في حاجة لأن: "تكون مسموعة ومفهومة ومجابهة عنها بأصوات أخرى صادرة عن أشكال وعي أخرى" (،). وكأن الرواية: "إعادة إنتاج للعلاقات الاجتماعية والصراع الأيديولوجي عن طريق اللغة." (،)

يتميز الفن الروائي عند باختين بجملته من السمات يمكن عرض أهمها بالشكل التالي:

لا تنكفئ الرواية على أسلوب واحد، إنما مكونة من أساليب متعددة، تقابل عددا من الشخصيات والأفكار والآراء، تعكس مختلف الأشكال اليومية، الأمر الذي يؤدي بنا إلى إيجاد صدى لمختلف الفئات والذات ودرجات الوعي الاجتماعي ضمن التعددية الأسلوبية في لغة الرواية.

الرواية كصنف أدبي لا تتأسس من الموضوع الذي تعرضه ولا على الشكل الذي تتميز به، وإنما من المغزى الاجتماعي، عبر التقنية الكلامية. عندما حلل باختين روايات دوستوفسكي لم يوجه اهتمامه إلى ما تقوله هذه الروايات أو شكلها أو مضمونها عن الواقع وإنما إلى المغزى الاجتماعي الذي تحمله تقنية القول هذه (،). وهذا استطاع أن يتجاوز ثنائية الشكل والمضمون: "وأن يبتكر محلها التحليل الشكلي الإيديولوجي." (،)

تتناول الرواية أحداثا معاصرة وتجارب شخصية للكاتب. إنها مرتبطة بالواقع الحاضر الذي صار يرسم معالم البطل الروائي في علاقته بالمجتمع، ويخطط لتطور الأحداث والعمل الفني في آن واحد. على الرغم من أن الرواية تتميز بخطابها الخاص وبأشكاله المتنوعة وحواراتها المتعددة، فهي جنس أدبي مفتوح على الأجناس الأدبية الأخرى، ومتواصلة مع أساليب القول المتنوعة، سواء تعلق الأمر بالشخصية الروائية أم بشخصية الكاتب. إن الموضوع المميز للرواية الذي يخلق أصالة هذا الجنس الأدبي هو الإنسان المتحدث وخطابه، أو هو المتكلم وما يقوله المتكلم، يتجلى ذلك في:

الإنسان المتكلم وكلمته هما موضوع تصوير فني. فالكلمة لا يمكن العبارة عنها كما تتحدث عن موضوعات الكلام الأخرى بل تتضمن وسائل كلام وتصوير شكلية خاصة.

الإنسان المتكلم في الرواية هو إنسان اجتماعي مشخص، محدد تاريخيا. وكلمته لغة اجتماعية لكون الرواية على حد تعبير رينغور: "تاريخا قابلا للوقوع" (،)، إن من خصائصها أنها تهدف إلى قيمة اجتماعية وتاريخية، ولهذا تكون عامل تفكيك لإقحام التنوع الكلامي فيها.

ج- الإنسان المتكلم في الرواية هو صاحب إيديولوجيا، وكلمته هي قول إيديولوجي ووجهة نظر خاصة وهي التي تصبح موضوع تصوير في الرواية، وأن فعل البطل في الرواية وسلوكه ضروريان لكشف مواقعه الإيديولوجية.

إن مفهوم الحوارية الذي اعتمده باختين، جعله يشق الطريق لتوجيه متميز في مجال الإيديولوجيا الخاصة، كما وجه الدراسة النقدية للبحث عن الإيديولوجيا في الرواية بدل تضيق الرواية في حادثة إيديولوجية محددة.

والواقع أن الروائيين بحد ذاتهم هم الذين سعوا: "وراء تحولات الرواية، بالتالي وراء اتساع تصوراتها النظرية وإعادة تحديد وظائفها وآفاقها على يد النقاد والفلاسفة" (،) إذ إن لكل عصر ظروفه وشروطه ومعطياته. ولا بد للرواية أن ترتبط بمعطيات المجتمع الحديث وأن تسير ظروفه وفق تطور حدائي مستمر (،).

تتميز الرواية إذن بصفة التحول المستمر: "على مستوى الفرد والجماعة فظهرت فيها صور عديدة للإنسان ومحطات مختلفة لحياته، تجسد فيها تعددا لغويا يعبر عن هذه الخصوصيات" (،). إن الرواية بهذا المعنى ظاهرة متعددة في أساليبها، متنوعة في أنماطها، متباينة في أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحيانا في مستويات لغوية مختلفة، وتخضع لقوانين أسلوبية. فهي بهذا تنوع لغوي اجتماعي منظم فنيا، وهذا التنوع يمنح للغة الحياة.

5-النقد الحوارية و صفة التفاعل المتبادل:

كلمة حوارية تعني صفة التفاعل والاستجابة المتبادلة. وهي تقابل مصطلح أحادي أو مونولوجي (،). ومهما يكن فإن ملفوظات الإنسان سواء كانت موجودة أو وصلت إلى درجة خطاب إيديولوجي عميق، فإنها تتوافر دائما بشكل واضح أو خفي على أثر من أقوال الآخرين. فيحدث: "تفاعل متوتر وصراع بين كلامه الخاص وكلام الآخر، الأمر الذي يحدث إضاءة حوارية متبادلة" (،) ويغدو الخطاب قائما على ثنائية الحضور والغياب ويشغل الخطاب عبر آليات الاستدعاء والإقصاء. على أن الملفوظات المقصاة أو المخفية تشارك الملفوظات الصريحة.

إن الاتجاه الحوارية للخطاب وسط الخطابات الأجنبية بدرجات وطرائق مختلفة يزوده بإمكانات أدبية جديدة وجوهرية، يعضده ببنية نثره التي تلقي تعبيرها الأكثر عمقا فيكشف الخطاب عن التعدد الشكلي الاجتماعي متعدد اللسان لانتمائه وتحدياته وتقديراته ويكشف النثر بواسطة وعيه الاجتماعي الممرات المرسومة داخل الخطاب، والتناقضات الداخلية للموضوع ذاته، واللغات المختلفة واللغات المؤتلفة.

يشيد الفنان هذا التعدد اللساني الاجتماعي حول الموضوع بما فيه الصورة المكتملة المشبعة بامتلاء الأصداء الحوارية المحسوسة فنيا بالنسبة لجميع الأصوات والنبرات الجوهرية الموجودة في ذلك التعدد. فالاتجاه الحوارى للخطاب هو ظاهرة خاصة لكل خطاب. فهو يصادف موضوعاً آخر، يتفاعل معه تفاعلاً حياً، وهذا الصوغ الحوارى الداخلى للخطاب يجد تعبيره داخل سلسلة من خصائص الدلالة والتركيب والتأليف. إن الخطاب يفهم موضوعه بفضل الحوار، ولا يمكن لأي خطاب أن ينجو من التأثير العميق لخطابات أخرى.

غير أن الصوغ الحوارى لا يمكن أن يصبح قوة خلاقية للشكل، إلا حين يتم إثراء (أو إنتاج) التناقضات والتناقضات الفردية بتعدد لغوى اجتماعي، حيث التناغمات الحوارية تتسرب إلى طبقاته العميقة مضفية طابع الحوار على اللغة ذاتها وعلى رؤيتها للعالم فيولد حوار الأصوات تلقائياً مع حوار "اللغات" الاجتماعى، ويصبح ملفوظ الآخرين ملحوظاً.

إن جميع لغات التعدد اللسانى، مهما تكن الطريقة، التي فردت بها هي وجهات نظر نوعية حول العالم، وأشكال لتأويله اللفظي، ومنظورات غيرية دلالية. وهذه الصفة يمكن أن تستعمل بمثابة تكملة متبادلة، وأن تدخل علائق حوارية، حيث تلتقي وتتعايش داخل وعي الناس وداخل وعي الروائي المبدع. فتعيش حقيقة وتتطور داخل التعدد اللسانى الاجتماعى. لأجل ذلك تستطيع جميع اللغات أن تتخذ موضعاً لها على صعيد الرواية بمظاهر مختلفة من أسلبة وتقديم لغات مهنية ملتزمة، مع لغات أجيال تشتمل على لهجات اجتماعية وغير اجتماعية. هذه اللغات يمكن للروائي أن يجتذبها لتنسيق تيمات والتعبير عن نواياه وأحكامه. لأجل ذلك يلج باختين: "على المظهر الغيرى: الدلالى والتعبيرى، أي القصدي، لأنه القوة التي تنوع اللغة الأدبية" (،)، لأن جانبها القصدي هو الذي يمكن قيام علائق حوارية بين اللغات كيفما كانت من حيث هي وجهات نظر حول العالم. وهذا العمل يشبع اللغة دلالياً واجتماعياً، وكلما عظمت القوة الاجتماعية تكف اللغة على الاحتفاظ بأشكال وكلمات محايدة، بل تسند إليها نوايا ونبرات للوعي الذي يعيش داخل اللغة، لأنها ليست نسقا مجرداً من الأشكال المعيارية، وإنما رأي متعدد اللسان حول العالم، وجميع الكلمات فيها تستحضر مهنة أو جنساً تعبيرياً أو نزعة أو عملاً أدبياً أو جيلاً أو عمراً وكل كلمة تحيل إلى سياق أو عدة سياقات.

الواقع أن اللغة بصفتها تكثفا اجتماعياً ورأياً متعدد اللسان، تتموضع عند الحد الأقصى من منطقة الروائي ومن منطقة الآخرين. إذ اللغة ليست بنية محايدة، إنها لا تصبح ملكية للمتكلم فحسب، بل هي مفعمة بنوايا الآخر، وعلى هذا يصبح التنوع القصدي تنوعاً في اللغات، لأن الأمر يتعلق بحوار لغات. فاللغة المتشعبة بالثقافة والمتوافرة على تاريخ لفظي وإيديولوجي غني وكثيف، تبدو وكأنها عالم صغير منظم، يعكس العالم الكبير للتعدد اللسانى. فيجد القارئ نفسه أمام لغات وليس لغة واحدة، يجد نفسه أمام ضرورة اختيار لغة. ولكل واحدة تمظهراتها، إلا أن موضوع كل واحد منها يكون مشيداً بصلابة وغير قابل للنقاش. ويكون الانتقال من لغة إلى أخرى آلياً، فلا تتصادم تلك اللغات داخل وعيه، وهو لا يحاول أن يربط بينها، ولا أن ينظر إلى واحد منها ببصر الأخرى.

يستعمل الروائي إذن داخل عمله الأدبي التعددية اللسانية والصوتية للغة الأدبية وغير الأدبية، الأمر الذي يجعل عمله أكثر عمقا وتوعياً وتفرداً، فهو يشيد أسلوبه مع الحفاظ على وحدة شخصية المبدع، فالتعدد الصوتي والتعدد اللسانى يدخلان إلى الرواية وينتظمان فيها ضمن نسق أدبي منسجم، وهنا يكمن التفرد الخاص للجنس الروائي، هذا التفرد يتطلب أسلوبية ملائمة، لا يمكن أن تكون إلا أسلوبية سوسيولوجية.

6- الفكرة وسط مادي لتمظهر الوعي الإنسانى:

عني باختين بمفهوم الفكرة، ورأها المادة، التي تخضع لتشكيل الروائيين، لكونها الأساس الذي يبنى عليه مبدأ رؤية العالم، ما يجعل الفضاء الروائي عالماً مفعماً بالأفكار، التي تعمل على تكوين وجهات نظر القوى الفاعلة في الخطاب

الروائي. فالفكرة في الرواية: "مادة التصوير بحق، إنها بالنسبة إلى أبطالها أساس لرؤية العالم وتفسيره، يعطي شكلا لعوالم الأبطال التي بنيت وفق المبدأ المونولوجي المعتاد وهي مبنية من قبل الأبطال أنفسهم.()

توظف الفكرة في الخطاب الروائي لتكشف عوالم الإنسان، لأنها تمثل الوسط المادي، الذي يتمظهر عبره الوعي الإنساني. الفكرة عند دوستوفسكي كما يراها باختين ليست بطلّة أعماله: "لأن الإنسان هو الذي يقوم بهذا الدور لأنه لم يعبر عن الفكرة داخل الإنسان بل وفق تعبيره الدقيق عن الإنسان داخل الإنسان. لقد كانت الفكرة بالنسبة إليه إما محكا يسمح باختيار الإنسان داخل الإنسان، وإنما شكلا للتعبير عنه إما وسيطا يقوم على كشف الوعي الإنساني.()

تقوم الفكرة في الخطاب الروائي بوظائف جمالية، تقدم عبر شكل فني يعبر عنها الكاتب من خلال التشكيل اللغوي، الذي يعكس بالأساس وجهات النظر القوى الفاعلة في الرواية دون أن يهمل من ذلك شأن الجانب المضموني لها. إضافة إلى ذلك فهي مرهونة بما هو خارج إطار الوعي الفردي. إنها مرتبطة بالمجال الذي تلتقي فيه مجموعة مستويات من الوعي. على أن الفكرة تتجسد وتحدد من خلال العلائق الحوارية، وتحمل طابع الروابط بين الأفراد، وطابع العلاقات الذاتية الداخلية، إنها ليست في الوعي الفردي وإنما في التواصل الحواري بين أشكال الوعي.

تتجلى الأفكار في العمل الأدبي في شكل حكم وأمثال وأقوال على لسان الشخصيات الروائية، يمكن أن تكون: "منثورة على مساحة العمل الأدبي، ويمكنها أيضا أن تظهر في خطاب تحت صيغة أقوال معزولة أو حتى تأملات مطمورة جدا.()" تكون أفكار الكاتب معروضة بشكل خفي وراء كلمات شخصيات العمل الروائي مع الحفاظ على استقلاليتها عن هذه الشخصيات، وعلى القارئ أن يكشف التماثلات الفكرية والإيديولوجية بين المؤلف والبطل، وعلى الرغم من تدخل الموقفين تبقى المسافة واضحة بينهما.

قد ينحاز الكاتب لواحد من الأبطال أو لفكرة معينة ومع ذلك ينبغي الحفاظ على المبدأ الأساس، الذي اعتمده أي المبدأ الحوارية لتشارك الأفكار في الحوار الكبير، لأن الخطاب الروائي (الرواية الحوارية) هو نص ديمقراطي يمنح المؤلف فيه القوى الفاعلة الفرصة المناسبة والموقع الخاص لكل شخصية، لأن تترجم عن رؤيتها تجاه العالم والوجود. فعندما حلل باختين أعمال دوستوفسكي أدرك أن الفكرة هي الموضوع الرئيس والمحوري في أعماله.

يقوم طرح الفكرة في الأدب على طابع مونولوجي. فالفكرة إما أن يجري إقرارها أو نفيها. إن كل الأفكار التي تتبنى وتتأكد تندمج في وحدة وعي المؤلف، حيث أن الأفكار التي ترفض تتوزع بين الأبطال بوصفها أفكارا ذات قيمة دلالية. إن المؤلف يترك بصمته على الأفكار التي تطرح في العمل الإبداعي فتندمج الفردية والقيمة الإدراكية الإيديولوجية، دون أن تترك إحداها الأخرى.

يمكن أن تقوم فكرة المؤلف في العمل الأدبي بثلاث وظائف:

إنها الأساس الذي تستند إليه الرؤيا نفسها وتصوير العالم. إنها المبدأ الذي يعتمد عليه في اختيار المادة وتوحيدها، وهو المبدأ الذي يقرر النبرة الأحادية الإيديولوجية لجميع عناصر العمل الأدبي.

يمكن أن يقدم الكاتب الفكرة بوصفها استنتاجا واضحا بهذه الدرجة أو تلك أو وعيا مستخلصا من المادة التي يجري تصويرها.

ج- إن فكرة المؤلف يمكن أن تكسب تعبيرا مباشرا داخل الموقف الإيديولوجي للبطل الرئيس.

17-إيديولوجيا رؤى مختلفة للقوى الفاعلة:

إنّ الايديولوجيا كمفهوم نظري يوجد في حالة علاقات دائمة مع الحركة السياسية الشاملة ومع الممارسة السياسية الواعية. وهي أيضا تصور للعالم: "الذي يشمل جانبا نظريا (بوصفه يقوم بعملية معرفية ويقدم نشاطا فكريا) وجانبا تطبيقيا لكونه إطارا للنشاط يتجسد كإيمان، واعتقاد، وترجمه عيانيا مواقف وممارسات ونشاطات ملموسة."()

وهي بهذا المعنى تشمل مجموعة من المعايير والقيم الأخلاقية، كما تتجلى ضمنا في الفن والقانون وجميع تظاهرات الحياة، والعلاقات التي يقيمها الإنسان مع سائر الناس ومع الطبيعة. تؤطر الممارسات التاريخية للبشر وتشكلها، سواء كانت في الأشكال الأدبية أو السياسية. فالأدب: "ككلية تعبيرية شفافة تبدأ من الحقيقي وتنتهي إليه، دون أن تعرف التناقض لا في بنيتها الداخلية ولا في أثارها الإيديولوجية... وفي غياب التناقض يصبح الموضوع الأدبي نظيرا للحقيقة، ويصبح الكاتب ذاتا مدهشة تسيطر على ذاتها وتخضع لجملة شروط خارجية اجتماعية لا تستطيع السيطرة عليها."()

إنّ الأدب مشروط بسياق سوسيو تاريخي محدد بالأدوات والتقنيات والتراث الأدبي التصويري الذي يجده المؤلف كمنتج ذهني أمامه. هنا يكون الأدب شيئا تابعا لوجود سابق هو وجود الايديولوجيات، مما يشكل علاقة حميمة بينهما (الأدب والايديولوجيا)، علاقة كون الأدب شكلا من أشكال الايديولوجيا وخطابا خصوصيا من خطاباتها. هو من إنتاجها بمعنى أن: "الأدب هو إنتاج لا يوجد إلا بالعلاقة مع الايديولوجيا ومع التاريخ، تاريخ التشكيلات الاجتماعية وتاريخ الإنتاج الأدبي وتطور أدواته وتقنياته الأساسية ومواد عمله"(). ففي عملية إنتاج النص الأدبي وتشكيله نلمس سيرورة تحويل وتشكيل وتغيير للمواد الأدبية التي أسستها الأشكال الأدبية السابقة أمام المؤلف من فنيات واتجاهات وأساليب الكتابة وطرقها، كما أن المؤلف في لحظات الكتابة يجد أمامه تجربته الحياتية بكل أبعادها النفسية والاجتماعية والايديولوجية التي يتبناها، حتى إنه يمكن أن يتبنى بعض الايديولوجيا المتواجدة في مجتمعه وعصره.

الكتابة هي عملية تحويل للغة وتشكيلها، أي نقلها من وضع المادة الدالة إلى وضع تنظم فيه من جديد داخل النص الأدبي. الكاتب يقوم بتحويل اللغة ويدخل في سياق جديد لينتج بذلك أصنافا من الدلالات، وهذا المنظور يغدو الأدب إعادة إنتاج الايديولوجيا وليس نتاجا لها لأنها موجودة قبله.

تتم هذه العملية الملموسة التي تشمل التشكيل والتصوير الروائي في سياق عام. وهو الذي يعطي الإنتاج الأدبي سماه ومبرراته، لكونه جوابا اجتماعيا عاما على ميراث مشكلات طرحها المجتمع والتاريخ، لأنّ الرواية كلمة أو خطاب إيديولوجي اجتماعي ملتزم بإشكالية عامة للحركة والتأثير. ولهذا فإن شكله ومضمونه موجهان ومرسلان إلى متلق ومخاطب اجتماعي هو الجمهور القارئ.

لقد شكّل الأدب والفن بشكل عام مادة للتحليل الإيديولوجي المضموني المجرد الشيء الذي أبعد هذا التحليل عن المعالجة الموضوعية المباشرة للخصوصيات التي تميز مختلف الأجناس الأدبية: "ويرجع الخطأ الأكثر تكرارا عند الإيديولوجيين-حسب باختين- إلى استخراج عنصر من العمل الأدبي ومقابلته مباشرة بما يشهده في الحياة الاجتماعية بدون الاهتمام بالعلاقات التي تقام بين هذا العنصر وباقي المكونات الأخرى للعمل الأدبي. أما باختين، فإنّه، على عكس ذلك، يرى أنّه لا يمكن أن نحذف أية حلقة من هذه السلسلة المستمرة التي يشكلها مفهوم الظاهر الإيديولوجي، ولا يمكن أن نتوقف عند حلقة بدون أن نمزج إلى الأخرى، بل إنّ من غير المقبول أن ندرس العمل الأدبي مباشرة كعنصر للوسط الاجتماعي... لقد استطاع باختين التخلص من التحليل الإيديولوجي المضموني الصرف راسما لنفسه أفقا نقديا مغايرا يعتبر الشكل والمضمون شيئا واحدا داخل الخطاب المعبر بمثابة ظاهرة اجتماعية."()

اهتم باختين بمفهوم الإيديولوجيا في الخطاب الروائي اهتماما كبيرا. وهو لا يعني إبداعا فرديا أو شكلا سياسيا مباشرا، إنما الايديولوجيا تصور عميق الدلالة، منظومة قيم كبرى تحتويها الرواية القائمة على المبدأ الحوارية. تبرز فيها

صراعات بين رؤى مختلفة للقوى الفاعلة. على هذا تغدو الرواية الحوارية تجاذبا بين مستويات وأشكال مختلفة من الأيديولوجيات ما يجعلها فضاءا لالتقاء الأفكار ووجهات النظر وتصارعها على مساحة العمل الأدبي.

كما أن النزاعات الاجتماعية والمصالح الجماعية حسب باختين، يُنظر إليها على مستوى اللغة ليس باعتبارها نسقا جماليا جامدا ومغلقا، بل باعتبارها مجموع بنيات تاريخية متغيرة تعود تحولاتها إلى الصراعات الاجتماعية والتجديدات التي تفرضها وبذلك يكون قد تجاوز التوجه السوسوري، الذي اعتبر اللغة نسقا من القواعد المجردة يستخدمها الإنسان ليتكلم ولينتج كلاما، بينما هو ربط اللغة بالمجتمع وجعلها أفقا لتناقضات إيديولوجية مختلفة. فكل كلمة معبأة بمحتوى إيديولوجي ما.

عندما يفسح الكاتب أمام أبطاله حرية مطلقة لتأدية أفكارهم دون تدخل منه في سلوكياتهم ومساراتهم وتصرفاتهم، تصير الرواية أو النسيج اللغوي- الذي شكل الخطاب الروائي- مسرحا حقيقيا لحوار الأيديولوجيات وصراعاتها واختلافاتها، بما في ذلك الأيديولوجيات الخاصة بالكاتب، التي هي واحدة من مجموع الأيديولوجيات. إلا أن هذه الأصوات: "تبدو متعادلة القيمة بحيث يكون من المتعذر تماما تحديد الموقف الذي يتبناه الكاتب ما دام يدير الصراع الأيديولوجي في شبه حياد تام"(. يؤكد باختين أنه على الكاتب ألا ينتصر لإيديولوجيا ضد أخرى، وهو مطالب بأن يبقى في دائرة الحياد كي يخرج القارئ بعد قراءة العمل دون تحديد الأيديولوجيا المنتصرة، وبذلك يكتسب معرفة عميقة بكل الأيديولوجيات التي يتضمنها الخطاب الروائي.

يدير الكاتب هذه الأيديولوجيات المعروضة في الخطاب الروائي بوسائله الجمالية كي تظهر طبيعية، ولعل أنجع وسيلة هي اللغة والكلمة، فتغدو هذه الأيديولوجيات مادة أساسية من مواد الخطاب الروائي، وتصير الأدبية والبنية الأيديولوجية ملتحة ترفض التعارض.

الخاتمة:

مثلت أطروحات باختين ثورة حقيقية في مجال النظريات النقدية والفلسفات اللغوية والتحليل الاجتماعي للأدب، مما دعا بعضهم من كبار النقاد في العالم إلى اعتباره «ناقد القرن العشرين»، خاصة أن مفاهيمه أثبتت صلاحيتها في التعامل مع تجارب إبداعية تنتمي إلى مناطق متعددة من هذا العالم. واستنادا لما سبق توصل بحثنا إلى النتائج الآتية:

- إن المرجعية المعرفية لتصورا باختين وأطروحاته، تتمثل في الفكر العلمي والفلسفي الحديث، الذي يسلم بنسبية الحقيقة وبقابلية النصوص الأدبية وغير الأدبية، لأكثر من تأويل بما أنها هي ذاتها متعددة المستويات والتعبيرات والمعاني.

- اعتبر باختين اللغة مدخلا أساسيا اجتماعيا، وذلك عن طريق ربط الدليل بالإيديولوجيا ذلك أن اللغة تستطيع أن تعبر تعبيرا أيديولوجيا عن الصراعات الاجتماعية، وتنعكس عليها مختلف التحولات التي يمر بها المجتمع، إنها نمط العلاقة الاجتماعية الأكثر نقاء والأكثر وضوحا، إن ما تمثله الكلمة في دقة دلالتها، وما تمثله بصفاتها ظاهرة. وبناء على ذلك يجب أن نضع الكلمة في المستوى الأول لدراسة الإيديولوجية، فإن الرواية، بحسب باختين تكون ملتقى لمجموعة من اللغات الاجتماعية المتصارعة فيما بينها، يتمظهر ذلك في التعدد اللغوي الذي تزخر به..

- تتجسد أهمية التنوع اللغوي في تحرير النص الأدبي من سلطة اللغة الواحدة، وكذا من نير الرؤية الواحدة. إضافة إلى ذلك، فهو يفسح مجال محاوراة اللغات بعضها بعضا، من جهة، وتحطيم صورة النموذج من جهة أخرى. وبناء عليه، تكون الرواية ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، فتطرح على المحلل مهمة اكتشاف الوحدات الأسلوبية المتجانسة التي تتمظهر في أشكال لسانية مختلفة.

- إن الرواية ظاهرة متعددة في أساليبها، متنوعة في أنماطها، متباينة في أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحيانا في مستويات لغوية مختلفة، وتخضع لقوانين أسلوبية. فهي بهذا تنوع لغوي اجتماعي منظم فنيا، وهذا التنوع يمنح اللغة الحياة والاستمرارية فتنشأ علاقات وصلات بين مستويات لغوية مختلفة.

- يتحقق مبدأ النقد الحوارى من خلال تحاور الأصوات داخل الرواية، والتي تكون الشخصيات ممثلة لها، فلا صوت للكاتب أو الراوى في نظرية باختين، والشخصية تؤدي دورها من خلال اسمها وملامحها وصفاتها ومظهرها وخطابها... وكل ما قد يجعل منها موقفا إيديولوجيا، لاسيما قولها، حتى أن باختين أسهب كثيرا في مسألة "تعدد اللغات"، فهي الركيزة الأساسية في تحقق الحوارية؛ الشخصية تتحدث حسب انتمائها الاجتماعي ومستواها الثقافي... والراوى يتكلم بلغة مشتركة لدى الجميع حتى يكون محايدا، كما أن الرواية قد تتخللها لغات أجناس أخرى كالشعر والمثل الشعبي، وغيرهما مما يكون موقفا إيديولوجيا.

- تسعى الرواية لاحتضان الإيديولوجيات، لا إبراز إيديولوجيا واحدة فقط، ذلك أن الإيديولوجيا تدخل الرواية باعتبارها مكونا جماليا لأنها هي التي تتحول في يد الكاتب إلى وسيلة لصياغة عالمه الخاص.

- لم يغض باختين الطرف عن الأبعاد التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية المحيطة بالرواية، وإنما أقر بأنها التي شكلت حوارية الرواية وحقت تعدد الأصوات وتباين الإيديولوجيات إلى حد تصارعها، ثم إنه اتخذ من اللغة ركيزة في قراءة تاريخ الرواية وإعادة تأويله، وركيزة أيضا في بناء تصور الحوارية لديه.

- لقد عالجت كتابات باختين قضايا ترتبط بموضوع الخطاب، وإنتاجه النقدي الذي حفز البعض الى ضرورة البحث عن مقارنة مغايرة للقيمة الجمالية والأخلاقية للسرد الأدبي. وموضوعات التمثيل، والتشكلات الجماعية للخطاب ومفهوم الذات والآخر.

إن القيمة الكبرى في الأطروحات التي قدمها ميخائيل باختين، تتمثل في تجنب البحث عن نظرية نقدية مغلقة وضيقة الأفق. ففي الوقت الذي كانت فيه الشكلية مهيمنة بنظراتها ونظرياتها التي تحيل النص إلى شبكة من العلاقات المغلقة على نفسها، التفت باختين إلى الدلالة الاجتماعية للشكل نفسه، ونبّه إلى ضرورة تحليل المستويات اللغوية المتعددة والمتراكبة داخل النصوص باعتبار أن الأيديولوجيات والمواقف والتصورات كامنة فيها ومستكنة بداخلها وهي نتاج لها في الوقت ذاته.

الهوامش:

- م.. باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط2، الرباط، 1987، ص31.
- زهير الشليبة، مطالعة في فكر باختين النقدي، مقالة في مجلة المعرفة، ع 281، دمشق 1985، ص37.
- ينظرم، باختين، الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة ط1، دمشق 1988، ص33.
- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ص112.
- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات إتحاد كتاب العرب، ط1، دمشق 2008، ص271.
- Jean Peytard, Quelques relations de la linguistique à la sémiotique littéraire de Greimas à Bakhtine, Hâtier, Paris, 1980, p35.
- فيصل دراج، نظرية الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ط1 دار البيضاء 1999، ص67.
- المرجع نفسه، ص68.
- م. باختين، الكلمة في الرواية، ص52.

- المرجع نفسه ، ص54.

- م.باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد برادة، دارالأمان للنشر والتوزيع، ط2، الرباط، 1987، ص30-29.

- أسلوبية الرواية، منشورات دراسات شال، ط1، الدار البيضاء 1989، ص71.

- Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, GALLIMARD.1978. p83.

- صالح صلاح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة 2003، ص292.

- ببيرماشري، من أجل نظرية الإنتاج الأدبي، دارما يروباريس 1980، ص225، نقلا عن: عمار بلحسن، الأدب

والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دت، ص177.

- صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دارسعاد الصباح، ط2، القاهرة 1992، ص77.

- م.باختين، الكلمة في الرواية، ص61.

- Recherche pour une sémanalyse, Edition du seuil, Paris, 1978. 1.

, p149.

- حسين حمودة، كرنفال المدينة...مدينة الكرنفال، مقالة في مجلة العلوم الإنسانية، العدد 19/18، كلية الآداب،

جامعة البحرين، المنامة 2010، ص211.

- حسين حمودة، كرنفال المدينة، مدينة الكرنفال، ص212.

- إدريس الخضراوي النقد الروائي وإشكالية اللغة الروائية، مقالة في مجلة العلوم الإنسانية، ع18-19، كلية الآداب،

جامعة البحرين، المنامة 2010. ، ص277-278.

- Voir :M.Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, p.142- 149.

- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1999، ص10.

- ينظر:باختين شعرية دوستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التركي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء 198

، ص113.

- م.باختين، شعرية دوستوفسكي ، ص120.

- يمني العيد، الراوي الموقع والشكل، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1986. ص 177 .

- م.باختين، شعرية دوستوفسكي، ص125.

- عمر عيلان، ، في مناهج تحليل الخطاب السردية، منشورات اتحاد كتاب العرب ط1، دمشق 2008، ص279.

- ينظر:أن جفرسون وديفيد روبي، النظرية الأدبية الحديثة، تر: سمير مسعود، وزارة الثقافة السورية، دمشق

1992 ص301.

- Todorov, Le principe dialogique , Seuil , Paris, 1981, p8.

- Paul Reynckor, Le roman, Hachette, Paris, p 12

- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 1987،

ص20.

- Voir : Pierre V. Zima, Pour une sociologie du texte littéraire, V.G.E col, 10/18, Paris , 1978, p 364.

- Pierre Chartier, Introduction aux grandes théories du roman, Editions Nathan, Paris, 2000, p28.

- ينظر:إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دار الشقيقات للنشر والتوزيع، القاهرة، ص109.

- Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, p172

- م.باختين، الخطاب الروائي، ص62.
- م.باختين ، شعرية دوستوفسكي، ص57.
- م.باختين ، شعرية دوستوفسكي، ص65.
- المرجع نفسه، ص125.
- ميشال سيمون، أفهم الايديولوجيا، دار الوقائع الاجتماعية، باريس 1978، ص103.
- عمار بلحسن، الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 74-75.
- المرجع نفسه، ص92.
- عبد المجيد الحسيب، حوارية الفن الروائي، ط1، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والأدب، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، مكناس 2007، ص12-13.
- حميد لحمداني، النقد الروائي والايديولوجيا، منشورات دراسات شال، ط1، الدار البيضاء 1991، ص36.